د.أورغي أحمد	الفكر الإصلاحي عند الشيخ العربي التبسي و سماته الوطنية	كلية الآداب والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية قسم الفنون - جامعة تلمسان -

إنّ أهمية دراسة الفكر الإصلاحي للشيخ العربي التبسي و سماته الوطنية تعود إلى أنه من أبرز الذين ناضلوا عن عروبة الجزائر ودعوا إلى تحررها و تقدمها في نطاق الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب جانب عبد الحميد بن باديس و غيره من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . و من الذين يرجع لهم الفضل في بعث النهضة الثقافية العربية في الجزائر المعاصرة . كما أن جهوده في حفظ الكيان الوطني للجزائر في ميادين التربية والتعليم و الإصلاح الديني و الاجتماعي. كانت الأساس الذي حطم دعوات الفرنسة والتغريب و إنكار الشخصية الجزائرية .

إنّ دراسة سمات الوعي الوطني في فكر الشيخ العربي التبسي ستتركز حول المحاور التالية:

- شخصية الشيخ العربي التبسي
- الشخصية الوطنية الجزائرية
- اللغة العربية و الدفاع عنها
- مفهوم الوطنية عند الشيخ العربي التبسي

شخصية الشيخ العربي التبسي :

ولد العربي التبسي بن بلقاسم في سنة 1891م. تلقى الشيخ تعليمه في مسقط رأسه حيث حفظ القرآن صغيرا ، ثمّ انتقل إلى مدينة نفطة بالجنوب التونسي ، ثمّ إلى جامع الزيتونة بتونس عام 1914 ، ثمّ رحل إلى مصر عام 1920 حيث مكث بالأزهر الشريف

فتعلـم أصول الدين وعلومه ، ثمّ عاد إلى الجزائر عام 1927 حيث قضى ثلاثين عاما في نشر العلم و محاربة البدع و الخرافات ومكافحة الإستعمار الفرنسي.

إنتقل بعد ذلك إلى مدينة سـيق التابعة لولاية معسكر حاليا عام 1930 فعمل هناك مدرسا و مرشدا إلى غاية 1932 فقام بتأسيس مدرسة التهذيب للبنين و البنات. تأثر الشيخ العربي التبسي بأئمة الثقافة الإسلامية ، كالإمام علي كرّم الله وجهه ، و الحارث بن أسـد المحاسبي أحد أئمة الحديث و من أبرز أئمة التصوف ، وكذلك بالإمام محمد بن أبي بكر المشهور بإبن قيم الجوزية و إبن تيمية.

عندما أسـس الشـيخ عبد الحميد ابن باديس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و التي كان غرضها تحرير الجزائر عن طريق إنشاء جيش من من الشباب يحمل فكرة الجمعية وعقيدة الإسلام . كان الشيخ العربي التبسي سباقا إلى تأييده الكامل لأنه كان يؤمن بأنّ هذه الجمعية ستكون نقطة جذب لمئات الآلاف من أنصار العلم و التحرر1 .

إتجه االشيخ العربي التبسي في دعوته الإصلاحية إتجاها سلبيا . فقد أدرك منذ البداية أن نهضة الجزائر تتم عن طريق بعث الامة و إصلاحها قبل مواجهة المحتل الفرنسي ، فكان يرى أنه لا يمكن في المرحلة الأولى من العمل الوطني الإصطدام بالاستعمار بجموع ما زالت تعتقد أن المجنون ولي الله ، و أن الأمي المشعوذ عالم ، فالوعي يفرض أن يأخذ العمل الوطني سـمة العمـل التربوي الهادف إلى القضاء على الجهل و الخرافات التي ألصقت بالدين الإسـلامي الحنيف ، وزرع المفاهيم و المبادئ الصحيحة .

وعند اندلاع الثورة المسلحة عام 1954 لم يتقاعس الشيخ العربي التبسي على حث الناس على وجوب مسـاندة و مؤازرتها و تفضيلها و تقديمها على النفس و الأولاد وهو القائل :»إنه لا يمكن إرضاء الإسلام و الوطن و إرضاء الزوج و الأبناء في وقت واحد ، إنه لا يمكن للإنسان أن يؤدي واجبه التام إلا بالتضحية»2 وفي موضع آخر يقول «إنهم

رجـال تململوا وتحركوا ودبـت فيهم روح الحياة الجامحة التي تحطم أمامها كل معترض مهما كان قويا، وتقدموا يخوضون معركة الحياة...»3

أولا : الشخصية الوطنية الجزائرية :

-1 مواجهة سياسية التنصير:

عندما أحكمت فرنسا قبضتها على الجزائر، أخذت تدعم هذا الوجود بحسب ظنها عن طريق مجموعة من الأنظمة و القوانين لفرنسة الجزائر وتنصير سكانها.

لقد اسـتمرت فرنسا في محاولاتها الرامية إلى تنصير المغرب العربي الإسلامي بعامة والجزائر منه بخاصة فوجهت برسائلها التبشيرية العديدة من الآباء البيض معتقدة أن هذه المناطق ستكون تربة خصبة لبذورها4.

إن سياسـة التنصير نظر على أنها خطة فرنسية لمحو الإسلام وعروبة الجزائر، فأعلن العلماء جزأرة الشعب بخلق وبعث تاريخ الجزائر الوطني وإعطاء الأولوية للتعليم العربي والإسـلامي، وعارضوا بشدة سياسة تنصير الشعب الجزائري، لقد رد الشيخ العربي التبسي :»إنه لمن العجيب حقا أن تريد فرنسا بتجنيسها محو جنس إنسـاني كامل في وقت تمنح فيه القوانين الدولية أداة أنواع الحيوان والطيور... ولذا فإننا لا نسلم في كرامتنا، ولا نتهاون في الخطر الذي يهدد جنسنا والله معنا».5

لقد اتجه الشـيخ العربي التبسي في مواجهة هذا الإتجاه نحو محاربة الجهل لمواجهة سياسـة فرنسـا التنصيرية في الجزائر بواسطة المؤسسات التعليمية الحرة و الحيلولة دون اندفاع الشباب نحو المدارس الرسمية الفرنسية لتربيتهم على الفخر بالإسلام والعربية، لقد تجسد ذلك في النوادي التي اقامتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عبر الوطن، كنادي الإتحاد : في قسـنطينة،والنادي الإسـلامي : في ميلة، و نادي التقدم في البليدة، ونادي النجاح في سيدي بلعباس6.

إن معارضة الشيخ العربي التبسي الشديدة لتنصير الجزائر وتجنيسها تتأتى من إيمانه الراسخ بأنه لا مفاهمة مع فرنسا وهي التي ظلت تعمل للقضاء على اللغة والدين، فقال: «إن فرنسا لم تترككم أمة حين نزعت منكم اللغة، واحتلت منكم الإسلام وما فيه فلم تقبض عليه لإحيائه، وإنما قصدت بذلك إلى التصفية على معالمه، ولكنها مغلوبة ومحكوم عليها سلفا بالهزيمة»7.

-2 التأكيد على انتماء الجزائر للأمة الإسلامية:

يعرف الشيخ العربي التبسي الجزائر بأنها «أمة شرقية في دينها، ولغتها، وعاداتها وأخلاقها ومشاعرها»8 ثم يضيف قائلا «وأجدني موقنا بان النشئ الجزائري سوف يعبر عن وجوده كأمة شرقية تحس الألم، وتحمي الذمار، ويتحرك قضه وقضيضه يعمل بعزيمة ماضية، وحكمة باللغة على إيجاد هيأة تكون رمزا للأمة الجزائرية»9.

إن هذا التأكيد المباشر على إنتماء الجزائر للأمة الإسلامية جاء كردّ مباشر لمواجهة سياسة التنصير من قبل السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ومحاولتها محو الهوية القومية الحضارية للشعب الجزائري. لذلك كان الرجوع إلى التراث الإسلامي والاعتزاز به لدى الشيخ العربي التبسي في كل مرة يريد تأكيد إنتماء الجزائر للأمة الإسلامية10.

والشيخ العربي التبسي كان يقيس وطنية المواطن بمدى تمسكه بالدين الإسلامي الحنيف ومدى إخلاصه له وتفانيه في الدفاع عنه وهو القائل: «ونحن بما أننا أمة إسلامية والإسلام دين غذاؤه العلم يجب علينا أن نكون أخضع الناس لما جرت به سنه الله في خلقه ولما علمناه من قدره في هذا الكون، وأن نكون أيضا من اشدّ الناس عملا بما فهمناه من سنن الله»11. لقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تقوم على أركان اساسية هي العروبة والإسلام والعلم والفضيلة. وعبر ما قامت به الجمعية من إنشاء المدارس العربية الحرة والنوادي الثقافية وعقد الندوات استطاعت أن تحفظ للجزائر إسلامها وشخصيتها الوطنية من الإنسلاخ12.

ثانيا : اللغة العربية و الدفاع عنها :

إتخذت اللغة العربية حيزا كبيرا من اهتمامات الشيخ العربي التبسي في الإصلاح والنهضة، بل إنه يرى أن الفضل يرجع لها في بقاء الدين بقوله :»ولكن لغتنا إليها يعود بقاء الدين ويظل مهيمنا على القلوب ما سكا بالأرواح «13 وفي موضع آخر يقول «دين الأمة الذي لا سبيل لنا إليه غير اللسان العربي»14 فلا غرابة في تركز جهوده على إحياء اللغة العربية ونشرها في الجزائر بعد أن سعى الاستعمار إلى حرمان الشعب الجزائري من تعليمها في المدارس .

إن الشيخ العربي التبسي لا يقف عند هذا الحد بل نجده يشدد على أن اللغة العربية هي لسان شمال إفريقيا كله بقوله :» إن شمال إفريقيا أمة عربية اللسان العامي وعربية اللغة العلمية ، وعربية التعاليم الدينية ، وعربية القضاء لا فرق بين مراكشها و جزائرها وتونسها و طرابلسها»15.

لقد أخذت جمعية العلماء المسلمين على عاتقها مهمة تعليم اللغة العربية ومواجهة محاولات وأدها ودفن حضارتها العربية فكان عملها محل جاذبية ونجاح فعلي إذا استندت على مبدأ أساسي هو «أن الجزائر بلادي ، والإسلام ديني والعربية لغتي»16.

جابهت فرنسا تلك الجهود فأصدر وزير داخليتها آنذاك شوتان قرارا رسميا في 18 مارس 1938 بمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر ونص على «أن اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية » مع أن سكان البلاد كان يبلغ عددهم في تلك الفترة زهاء عشرة ملايين ، لغتهم الوحيدة هي العربية.

لقد ركزت فرنسا جهودها الإستعمارية لتحقيق مشروعها في حرمان اللغة العربية من حق الوجود الرسمي المعترف به17.

إن هذه المحاولات زادت من إصرار الشيخ العربي التبسي على مقاومة المخططات الفرنسية فنجده يقول «واللغة الأجنبية بعنوان أجنبيتها معزولة عن حياة الشعب وكل

شيئ أبعد عن حياة الشعب تعرض للموت والهجران»18وإن سبب تلك المقاومة يؤكده العربي التبسي بقوله «ذلك لأنه لا دين ولا قومية، ولا أمة ولا أي مقوم أومميز للأمة إذا هي مضت فيما عليه من الجهل بلغتها، والعزلة عن تاريخها19».

ثالثا :مفهوم الوطنية عند العربي التبسي :

يعرف الشيخ العربي التبسي الوطنية على أنها «رأس عامة الفضائل، وقطب رحا الشرف، وهامة المعالي، وأية أمة اعتصمت بها.واستمسكت بمعناها الذي يحيي وحدتها ويحفظ عليها جامعتها، إلا وأخذت يمستقبلها بأوثق الأسباب وأمتن العرى وتم عدة، وكلما غيرت النائبات في وجهها أوعصفت بها الشدائد وكانت المعقل المنيع والوزير البعيد على أن ينال منها نائل20.

إن إطار الوطنية الجزائرية كان واضحا عند العربي التبسي. فقد كتب عام 1953 بمناسبة افتتاح دار التلميذ الجزائري مقالا بعنوان «أيها الشعب العظيم إستعد لليوم العظيم» يقول فيه : «إن هذه الدار هي وليدة رغبة الشعب، جاهدت في سبيلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .وقدمتها بإسم الله إلى شبابنا العامل المناضل في سبيل الدين والعروبة و الوطنية...»21

إن الحس الوطني لدى الشيخ العربي التبسي جعله يستشعر خطورة الوجود الفرنسي في الجزائر قائلا : «أيها المسلمون الجزائريون، إن فرنسا لم تترككم أمة حين نزعت منكم اللغة، واحتلت منكم الإسلام وما فيه، فلم تقبض عليه لإحيائه وإنما قصدت بذلك إلى التعفية على معالمها»22 وهو يوضح أنها ستنهزم «ولكنها مغلوبة ومحكوم عليها سلفا بالهزيمة، لأن الإسلام دين الله والعروبة ترجمان السماء إلى الأرض23».

إن ذلك يعني وعيا متقدما وتأكيدا على نظر ثاقب عند الشيخ العربي التبسي في تحليل المرحلة التي كانت تمر بها الجزائر إبان الإحتلال الفرنسي آنذاك فتنبأ بفشل مخططاتها الرامية للقضاء على اللغة و الدين الإسلامي.

يعتبر الشيخ العربي التبسي واحد من العلماء الجزائريين وأكثرهم تحمسا للقضية الوطنية والذي قام بدور كبير يضاهي الدور الذي أدّاه ابن باديس في حركة النهضة الجزائرية الحديثة. فهو قطب من أقطاب الفكر الإصلاحي المعاصر البارزين الذين ذاع صيتهم دخل الوطن و خارجه.

لقد حفظ العربي التبسي و جمعية العلماء المسلمين الشخصية الوطنية الجزائرية من ممارسات التذويب الثقافي و الحضاري و محاولة تنصير المجتمع الجزائري و بقاء الجزائر أرضا فرنسية.

إن العربي التبسي تميز عن غيره من المصلحين الإسلاميين في أنه لم يدع إلى قومية عربية بل دعا إلى قومية إسلامية أي وحدة العالم الإسلامي مستنبطا إستدلالته في طروحاته من الإسلام.

لقد تجسدت السمات الوطنية في فكر العربي التبسي في تناوله للقضايا الوطنية، نرى ذلك جليا في تأكيده على الشخصية الوطنية الجزائرية، و تأكيد إنتماء الجزائر للأمة الإسلامية في مواجهة سياسة التنصير، وكذلك تأكيده على اللغة العربية و التي عدها لغة الدين و الجنس.

إن هذه السمات تمثل وعيا وطنيا متقدما دعا إليه العربي التبسي في كفاحه المستمر الذي أثمر بحركة فكرية سياسة ثورية كان لها الفضل في استقلال الجزائر عام 1962.

الهوامش

-1 إن العربي التبسي يؤكد على دور العلم في بناء الأمم بقوله «... فقد آمن الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها بأن الجهل هو السبب الأساس في خراب الأمم، وسقوط الشعوب، وتدهور الجماعات البشرية، وأن العلم والمعرفة هما وسيلة الإنقاذ، و سبيل النجاة، والطريق السوي الذي يفتح أبواب السعادة والحياة». أنظر، الشيخ العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر جمع وتعليق، شرفي احمد الرفاعي، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر ط1. 1981. ص218.

-2 نفسه، ص202

-3 عمر قبلة، معالم في المسيرة الدينية والثورية للإمام الشهيد ضمن جريدة الرأي العدد 1502 مارس 2003، ص6.

-4 بسام العسلي، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، بيروت دار النفائس 1982، ص56.

-5 العربي التبسي، المرجع السابق ص52.

-6 أحمد بن نعمان، الجهاد وثورة الإسقلال، دار البعث للطباعة قسنطينة، الجزائر 1982، ص176.

-7 الشيخ العربي التبسي، المرجع السابق، ص229.

-8 نفسه، ص51.

-9 نفسه، ص57.

-10 خيرية عبد الصاحب، الفكر القومي في المغرب العربي، دار الحرية، بغداد 1982، ص43.

-11 العربي التبسي، المرجع السابق، ص119.

-12 خيرية عبد الصاحب، تطور الوعي القومي العربي في أقطار المغرب العربي معهد البحوث والدراسات العربية، بيروت، لبنان 1986، ص269.

-13 العربي التبسي، المرجع السابق، ص65.

-14 نفسه، ص60.

-15 نفسه، ص160.

-16 أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية دراسة وتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت 1958، ص122.

-17 ساجد عبل، الشيخ عبد الحميد بن باديس والوعي القومي العربي (1889-1940)، ضمن مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 254، أبريل 2000، ص66.

-18 العربي التبسي، المرجع السابق، ص160.

-19 نفسه، ص44.

-20نفسه، ص59.

-21 نفسه، ص53.

-22 نفسه، ص229.

-23 نفسه، ص230.